اللسانيُّ بطلًا!

تجليات استثمار عالم اللغة في الرواية المعاصرة



خالد فهمي

كلية الآداب - جامعة المنوفية

يُعرِّف المعجمُ المختص بمصطلحية اللسانيات أو علم اللغة اللسانيَّ فيقول: "عالم اللغة اللساني = linguist: شخص مختص بعلم اللغة، أو فرع من فروعه" (معجم المصطلحات اللغوية، رمزي منير البعلبكي).

وقد وجدتْ هذه الشخصية طريقها إلى الرواية الغربية والعربية وإن بدرجات كثافة متفاوتة. وكانت رحلة عبورها لعالم الرواية متنوعة الوظائف بطبيعة الحال.

والحقيقة أن ظهور اللساني بطلًا في الرواية مسبوق بخطوةٍ يُمكن أن تُعدّ تمهيدًا لهذا الظهور، تتمثل في اللجوء إلى شخصية الأكاديمي أو الأستاذ الجامعي في عددٍ من الروايات.

ومتابعة هذا السياق تكشف عن نوعٍ خاصٍّ من الرواية يمكن تسميتها بـ"الرواية الأكاديمية" التي تتخذ من الجامعة وشؤونها مجالًا واسعًا لحركة الشخوص، ومناقشة القضايا والموضوعات.

وفي هذا السياق، يمكن أن نقرر أن "الرواية الأكاديمية" كانت قد "ظهرت في القرن العشرين.. في العربية يُمكن أن تمثلها "الأيام" لطه حسين، و"الموت عشقًا" لعلي أبو المكارم، و"الليالي" لطه وادي، و"الحب يأتي مصادفة" لحلمي القاعود" (مقال: الأكاديميون والرواية: د. أشرف زيدان).

والسطور التالية محاولة لفحص الطاقات الفنية التي استثمرتها الرواية من طريق اللساني البطل.

(1) اللسانيُّ بطلًا.. نحو وعي بالخريطة الروائية:

إن محاولة التأريخ والوصول إلى نقطة البداية في ظهور اللساني البطل في الرواية بوصفها جنسًا أدبيًّا متمايزًا ضرب من الغرور في سياق هذه المقالة بطبيعة الحال، لا يمكننا أن ندعيه. وحسبنا في هذه المحاولة أن نقف عند تخوم خريطة الرواية التي وظّفت اللساني.

1 - تخوم الخريطة:

(1938م) رواية (فتاة من القرن الذهبي) لقربان سعيد، ترجمة: محمد عثمان خليفة.

(2015م) رواية (تعويذة العيفة) لتوفيق العلوي.

(2016م) رواية (بنات حواء الثلاثة) لإليف شافاق، ترجمة: محمد درويش.

إن هذه الأعمال الثلاثة التي يظهر فيها الأبطالُ لسانيين، أو علماء لغة، أو مشتغلين بدراسة اللغة بشكل صريح؛ تؤكد تفاوت كثافة ظهور توظيف هذه الشخصية بين الرواية الغربية والرواية العربية، وهو تفاوت طال عدد مرات الظهور بنسبة (2-1)، وطال تاريخ الظهور. إذ يظهر تقدم توظيف شخصية اللساني زمنيًّا قريبًا من نهاية النصف الأول من القرن العشرين الميلادي. كما يظهر من هذه العينة توزع شخصية اللساني البطل على نوعي الجنس الإنساني (الرجل والمرأة) معًا.

من جانب آخر، فإن بوسعنا أن نوسّع من صورة اللساني البطل ليغطي مساحات توظيف بعض العناصر الفنية شديدة الارتباط باللسانيات، وهو ما حملنا على أن نختار روايتين وظّفتا "المعجم" بصورة ماثلة، هما:

(1994م) رواية (ثلاثية غرناطة) لرضوى عاشور.

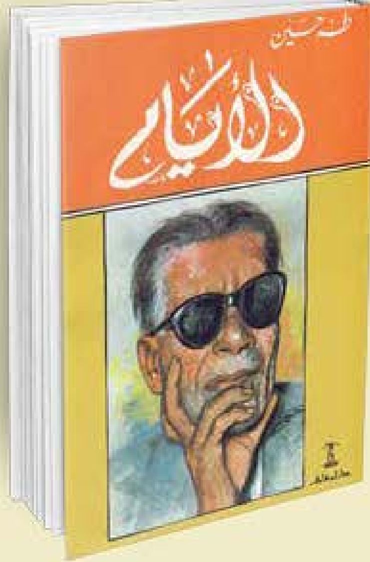
(2011م) رواية (الموريسكي) لحسن أوريد.

2 - اللسانيون الأبطال في هذه الأعمال.. مدخل تعريفي:

إن تحليل شخصية اللساني البطل في هذه الروايات يكشف عن استثمارٍ للرجل والمرأة على السواء، وهو ما يتجلى في الشخصيات التالية:

أ - "زاد الأنباري" في (فتاة من القرن الذهبي) لقربان سعيد (ت 1942م):

"زاد الأنباري" -بطلة هذه الرواية- فتاة شابة في مفتتح العشرينيات من عمرها، هربت مع والدها من تركيا بعد سقوط الخلافة العثمانية، لتبدأ حياة جديدة في برلين. وتَظْهر "زاد الأنباري" دارسةً للغة التركية وفقهها. وهو ما يتكشف عندما تنخرط في حوار مع الطبيب الألماني "هسه" الذي ستتزوجه فيما بعد كما تقضي أحداث الرواية:



"فوق مقعد الفحص الخاص بالدكتور "هسه" جلست فتاة شقراء ذات عينين رماديتين غريبتين.. جلس الدكتور "هسه" إلى المقعد المنخفض أمام الفتاة، ونظر إليها في اهتمام.

ما اسمك؟

زاد الأنباري

مهنتك؟

طالبة

أنت زميلة -إذن- في كلية الطب؟

كلا! فقه اللغة

دراسة الألمانية؟

جاوبته الفتاة في حدة: كلا! بل دراسة التركية.

أوه! وما ذلك؟

الفيلولوجيا التركية المقارنة" (ص: 15).

والحقيقة أن اختيار "زاد الأنباري" لسانيةً بطلةً يظهر خادمًا لقضيتها المركزية، وداعمًا للأحداث الصغرى المتناثرة فيها، ومغذيًا الشعور بالحنين للوطن في مواجهة الغربة التي فُرضت عليها وعلى أسرتها.

ب - "تازبيري نالبا نتوغلو" في (بنات حواء الثلاثة) لإليف شافاق:

"ناز بيري نالبا نتوغلو" بطلة رواية (بنات حواء الثلاثة) أو "بيري" كما يُعبر عنها في الرواية، فتاة شابة تنتقل من إسطنبول

إلى أكسفورد طالبةً في الجامعة. صحيح أنها ذهبت لدراسة الفلسفة السياسية، ولكنها بحكم غربتها عن إجادة اللغة الإنجليزية ستضطر لمواصلة دراسة اللغة الإنجليزية لتحسين مستواها، ولتتمكن من التحصيل الدراسي، وهو أمر أدركته بمجرد الانخراط في أجواء الدرس، تقول: "كان التحدي الكبير أمامها يتمثل في التعبير عن أفكارها على الورق، وبلغة غير لغتها الأم. وفي غمرة إصرارها وعزمها على النجاح، اندفعت اندفاعًا شديدًا في دراستها.. وفهمت جيدًا ضرورة تمكنها من إجادة اللغة الإنجليزية إذا شاءت أن تتفوق في أكسفورد" (ص: 232).

ج. "العيفة الهويمل" في (تعويذة العيفة) لتوفيق العلوي:

تظهر شخصية "العيفة الهويمل" أستاذ اللغة في الجامعة التونسية بطلًا لهذه الرواية، وهو ما حمل نفرًا من النقاد على طرح احتمال أن تكون هذه الرواية من نمط رواية السيرة الذاتية؛ نظرًا إلى أن كاتبها "توفيق العلوي" نفسه أستاذ للغة في الجامعة.

أما الروايتان الأخريان، وهما: (ثلاثية غرناطة) لرضوى عاشور، و(الموريسكي) لحسن أوريد؛ فهما وإن لم يظهر أحد من أبطالهما لسانيًا بصورة صريحة؛ فإن اقتراب رضوى عاشور



-رحمها الله- من اللسانيات بحكم عملها أستاذة للأدب والنقد الإنجليزي، ثم توظيفها هي وحسن أوريد مجموعة من التقنيات الفنية والجمالية المقترضة من حقل اللسانيات؛ يجعل من هاتين الروايتين مثالين ممتازين لتجليات اللساني البطل في الرواية المعاصرة، وهو ما سوف نحاول الكشف عنه في فقرة تالية من هذه المقالة.

(2) اللسانيُّ بطلًا!.. نحو قراءة في استثمار اللسانيات في بناء الرواية المعاصرة:

لعل من المهم هنا استباق القول كشفًا عن نتيجة تبدو واضحة جدًا تتمثل في ظهور استثمار واعٍ لمجموعة من حقائق اللسانيات ومسائلها في بناء الرواية المعاصرة.

وفيما يلي محاولة لبيان زمرة من هذه الحقائق والمسائل التي استثمرها الروائي الغربي والعربي المعاصر في بناء الرواية، وتوظيفها معماريًا، وجماليًا، وحجاجيًا.

1 - منزلة اللساني البطل في معمار الرواية المعاصرة وبنائها الداخلي:

وظّف هؤلاء الروائيون شخصية اللساني البطل في رواياتهم توظيفًا بارزًا، فقد ظهرت شخصيات:

"زاد الأنباري" في (فتاة من القرن الذهبي) لقربان سعيد، و"بيري" في (بنات حواء الثلاثة) لإليف شافاق، و"العيفة" في (تعويذة العيفة) لتوفيق العلوي؛ من نمط الأبطال المحوريين أو

الأساسيين الذين يشتغلون بدراسة اللغة أو فقهها.

كما ظهرت بجوارهم شخصيات ثانوية داعمة ومساندة أسهمت في تكملة رسم صور هذه الشخصيات الأبطال في الروايات محل التحليل. هذا جانب ظاهر جدًا، وهو في الحقيقة ما ألهم إنجاز هذه المقالة!

من جانب ثانٍ، فقد استثمر ثلاثة الروائيين في هذه الروايات حزمًا متراكمة من الحقائق والمعلومات والمسائل والمصطلحات اللسانية دفعت في اتجاه صناعة الحبكة، وتعميق الشعور بسير الأحداث بصورة طبيعية ومنطقية مناسبة لمجمل وظائف الروايات، وأغراضها ونفسيات شخوصها.

وفيما يلي بيان لما تقرر في كل رواية، مع تبيان ملمح جديد في كل رواية تتميز به عن غيرها.

- معمار رواية (بنات حواء الثلاثة) لإليف شافاق:

أ. مفاصل الرواية / أو فصولها:

كان من المدهش لجوء إليف شافاق في (بنات حواء الثلاثة) إلى صناعة فصل من القسم الثاني بعنوان (المعجم) رصدت فيه تجربة بيري في دراسة اللغة الإنجليزية لأهداف تحسين مستوى تحصيلها الدراسي في أكسفورد، ومتابعة النهوض بواجبات هذا التحصيل المتنوعة، سواء على مستوى تحسين النقاشات، أو على مستوى تحسين كتابة التقارير العلمية، بوصفهما من الأعمال اللازمة في عمليات التعلم والتحصيل.

ب. لغة الوصف والسرد:

وقد انضاف إلى هذا البُعد جملة من التشبيهات وردت في لغة السرد والوصف والحوار، نهضت برسم صورة لبيري بوصفها لسانية بطلة في هذه الراوية، من هذه الأوصاف ما يلي:

- وصف بيري على لسان شيرين زميلتها في الدراسة بأنها: "فتاة المعجم" (ص: 243).

- ورد في سياق مثاقفة "آزور" أستاذ الفلسفة مع طلابه ومنهم: "بيري" إذ يروي حلمًا عن ديكارت فيقول: "حسنًا! الحلم الثالث هو أهم الأحلام؛ إذ يشاهد ديكارت كتابًا فوق المنضدة، معجمًا من المعاجم" (ص: 369).

ثم يعود فيقرر فيما يشبه تأويل الحلم السابق، فيقول: "تنهد آزور، وقال: المعجم يمثل العلم والمعرفة، والشعر يرمز إلى الفلسفة والحب والحكمة، وظن (أي ديكارت) أن الرب طلب منه أن يجمع الثلاثة معًا بواسطة العقل، وأن يبتكر علمًا مدهشًا!" (ص: 398).

إن هذه العبارات تبدو مدهشة حقًا بسبب وقوفها على حقيقة ما يمارسه المعجم في حياة العقل، وما يسهم به في بناء الملكات المعرفية للدارسين المحترفين.

ج. رسم الشخوص جزئيًا:

استطاعت إليف شافاق تحقيق حزمة من مسوغات القبول لبيري الطالبة أو الدارسة المجتهدة المقبلة على تحسين مستوى تحصيلها الدراسي من طريق رفع كفاءتها اللغوية في لغة الدرس الجامعي في أكسفورد من طريق تعلمها اللسان الإنجليزي، ومن خلال صحبتها للمعجم، ومحبتها للمفردات.



د. تصاعد الأحداث وصناعة الحبكة:

إن هذه المشاهد التي استثمرت فيها إليف شافاق "المعجم" أسهمت في تصاعد الأحداث، وصناعة جزء من حبكة العمل الروائي، صعودًا نحو قدر من التأزم الصانع للتشويق.

- معمار رواية (فتاة من القرن الذهبي) لقربان سعيد:

رسم "قربان سعيد" صورة لـ"زاد الأذباري" في هذه الرواية مقنعة جدًا، وعميقة، بسبب مستوى الحقائق اللسانية التي حشدها وهو يتطور بهذه الشخصية / البطلة.

لقد تنوعت الحقائق اللسانية التي ظهرت من البدايات الأولى لرسم صورة هذه الشخصية، وأخذت هذه المعلومات والحقائق تتنامى مع تنامي الشخصية وتطورها، وتعقّد الأحداث التي تمر بها أو تسهم في صنعها.

وقد توزعت المعلومات اللسانية على الفروع المعرفية المنضوية التالية:

أولًا- معلومات من حقل تاريخ اللسانيات، من مثل: "كانت وفاة (تومسن الكبير) في كوبنهاجن حملت معها وفاة علم

الفيلولوجيا" (ص: 6).

ثانيًا- معلومات عن نظريات نشأة اللغة الإنسانية، من مثل: "الغرغرة فيها محاكاة صوتية" (ص: 21).

ثالثًا- معلومات من مستوى الصوتيات، من مثل: "الغرغرة فيها محاكاة صوتية، لا بد أن يقوم أحدهم ببحث المسألة كلها على أساس قانون الصوتيات" (ص: 21).

رابعًا- معلومات ومصطلحات متعلقة بحقل اللسانيات، من مثل: "الباليوغرافيا، أو علم دراسة الخطوط القديمة" (ص: 34).

خامسًا- معلومات من حقل التأثيل اللغوي ctymology والعلم اللغوي، من مثل: "ذي الأصول الإسلامية والعربية!" (ص: 41). وتأثيل "تو- كي" بـردِّه إلى التركية اعتمادًا على غياب الصوت (راء) في الصينية. تقول الرواية: "كان "جوتز" الخبير في اللغة الصينية.. يشرح الرمز: تو- كي، اللقتري: رحمه الله وقال بصوت جهوري: تفهّم زميلي أن في مثل هذه الحالات لا يكون المعنى مهمًا، بل الصوت؛ فلا يوجد الصوت "ر" في الصينية. وهكذا تكون: تو-كي علامة لكلمة: ترك أو تركي!" (ص: 73).

سادسًا- معلومات عن دراسات النقوش (انظر: ص 72)، وحقل المخطوطات (ص: 129-179).

إن هذه المعلومات المتناثرة بحرفية، محاطة بعدد آخر من التعابير التي تعتمد على توظيف مصطلحات لسانية، ودوريات لسانية، وأنواع متعددة من المصنفات اللسانية الموزعة على المعاجم، وكتب قواعد اللغات.. إلخ.

وهذه المعلومات اللسانية مهمة جدًا في رسم شخصية البطلة والشخصيات المحيطة بها، ومهمة في دعم تطور الأحداث وتشابكها وتطورها، ومهمة في تطوير الحبكة الدرامية وتقدمها نحو صناعة التشويق والإقناع معًا بمنطقية الأحداث والشخوص.

2- استثمار اللسانيات في البناء الداخلي في الرواية المعاصرة:

ظهر من تحليل بعض الروايات المعاصرة أن اللسانيات المعاصرة أسهمت على مستوى المعمار في بناء الهيكل الخارجي، وهو الإسهام الذي ظهر في التجليات التالية:

أولًا- رسم شخصية البطل والشخصيات المساعدة.

ثانيًا- اختيار بعض حقائق اللسانيات ومعلوماتها ومسائلها عتبات نصية في عنوانات بعض الفصول.

ثالثًا- صناعة أجزاء من العمل الروائي على هيئة مستعارة من أعمال اللسانيات، كتصميم جزء من الرواية على هيئة ملحق في صورة معجم للألفاظ اللغوية والمصطلحات الحضارية، كما في رواية (راوي مراكش) لجويديب روي باتاجاريا.

وقد استطاع عدد آخر من الروائيين